في المناولة المشتركة

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

سرّ الإفخارستيا سرّ الكنيسة. عندما نقول "سرّ" نعني عمل يفوق المنطق البشري، لأنه لا يخضع لمقاييس العالم المادي. إنه عمل يشترك الله فيه، فيرسل نعمته عبر عناصر مادية كالماء والزيت والخبز، فتصير وسيلة لتبريك المؤمن وتقديس حياته.

ليس المجال هنا للتوسع في مفهوم "السرّ" لاهوتياً بحسب النظرة المسيحية. فموضوعنا هو نواة سرّ الإفخارستيا، أعني المناولة المقدسة.

يطلب الإنجيل أن يكون كل من يتقدم من الكأس المقدسة قد تصالح مع من اختصم وإياه سابقا. لماذا؟ لأن في المناولة المقدسة تلتقي الجماعة المسيحية بالمسيح الذي يسكن ويتحد مع كل عضو منها، وتالياً يوحد هذه الأعضاء ببعضها بعضاً. تتحقق وحدة الجماعة الكنسية بسبب حضور المسيح فيها وفي كل منها.

لذلك إن كان أحدهم مختصماً، أو ليس على وفاق أو إيمان واحد مع الآخرين فإنه يعطب هذه الوحدة ويجعلها صورية ظاهرية، لا حقيقية.

يتحقق ملء وحدة الكنيسة في الإفخارستيا ، (القداس الإلهي). فالكنيسة جسد واحد لرأس واحد هو المسيح. ووحدة الكنيسة هي وحدة في الإيمان، لا في العواطف والمشاعر والسياسات أياً يكن نوعها. من هنا تشدد الكنائس الرسولية على توفر الإيمان الواحد بين المتقدمين من الكأس الواحدة.

أريد أن أعرض ما تقوله الكنيسة الكاثوليكية في هذا المجال، تعريفاً للمؤمنين من الأرثوذكس والكاثوليك معاً، بموقف الكنيسة الكاثوليكية الذي جاء على لسان بابواتها. وذلك تبياناً لتوسع غير سليم في التفسير والممارسة هنا وهناك، بات شائعاً في أوساط عديدة، ناهيك عن اتهامات مختلفة.

كتب البابا بولس السادس (١٩٦٣-١٩٧٨) رسالة رعوية مهمة تتعلق بسرّ الإفخارستيا بعنوان (سرّ الإيمان (Mysterium Fidei، نُشرت في ٣ سبتمبر ١٩٦٥، وهي من أبرز الوثائق التي تناولت موضوع القربان المقدس في سياق ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني. أبرز ما جاء فيها هو التشديد على أن الإفخارستيا هي قلب الحياة الليتورجية في الكنيسة، وهي "سرّ

الإيمان" الذي يجب أن يُصان بكل وقار. وعلى أن الاشتراك في الإفخارستيا هو علامة على وحدة الإيمان، وبالتالي لا يمكن أن يُفهم بمعزل عن العقيدة الكاثوليكية.

أما البابا يوحنا بولس الثاني (١٩٧٨-٢٠٠٥)، فقد كتب في رسالته "الكنيسة من الإفخارستيا" (أو "الإفخارستيا حياة الكنيسة")، في البند ٤٢ ، حول أهمية الإفخارستيا باعتبارها علامة الوحدة بين المؤمنين، وشدد على التوافق في العقيدة لذلك يجب أن تكون ممارسة المناولة المشتركة متوافقة مع العقيدة الكاثوليكية:

> "إنه من مهامّ كلّ مؤمن الحفاظ على الشركة الكنسيّة وتعزيزها، وهو يجد في الإفخارستيا، سرّ وحدة الكنيسة، مكاناً يُظهر فيه اهتمامه بنوع خاصّ. وبطريقة أكثر واقعيّة، تناط هذه المهمّة، مع مسؤولية خاصّة، برعاة الكنيسة، كلّ واحدٍ منهم بحسب رتبته ووظيفته الكنسيّة. لذلك وضعت الكنيسة نظماً تهدف، في آنٍ معاً، إلى تسهيل بلوغ المؤمنين، المتواتر والمثمر، إلى المائدة الإفخارستية، وإلى تحديد الشروط الموضوعية التي يحظّر فيها منح المناولة. إن توفير المحافظة الأمينة على ذلك، باهتمام، يصبح تعبيراً عمليّاً للمحبّة نحو الإفخارستيا ونحو الكنيسة."

ويتابع في البند ٤٤ فيقول:

> "ولمّا كانت وحدة الكنيسة التي تحقّقها الإفخارستيا بذبيحة المسيح وبتناول جسد الربّ ودمه، تتطلّب – وهذا لا يمكن مخالفته – الشركة الكاملة في روابط إعلان الإيمان والأسرار والإدارة الكنسيّة فلا يمكن الاشتراك في إقامة الليترجيا الإفخارستية نفسها حتى يُستعاد عقد تلك الروابط كاملةً. إن مثل ذلك الاشتراك في إقامة الذبيحة لا يمكن أن يكون سبيلاً صالحاً، بل يمكن أن يشكل عائقاً إزاء البلوغ إلى الشركة الكاملة، بتقليله من أهمية المسافة التي تفصلنا عن الهدف وبإدخاله هذه أو تلك من الالتباسات بشأن حقائق الإيمان أو بضمانها. فالسبيل إلى الوحدة الكاملة لا يمكن أن يمرّ إلاّ بالحقيقة. في هذا الموضوع، لا تترك أوامر النهي الواردة في شريعة الكنيسة أيّ مجال للشكوك، وفقاً للقاعدة الخلقيّة التي أعلنها المجمع الفاتيكاني الثاني.

"أني أودّ أن أردّد ما أضفت في الرسالة العامّة "ليكونوا واحداً،" بعدما تبيّن لي تعذّر مقاسمة الإفخارستيا ذاتها: "ونحن أيضاً، نلتهب رغبةً في أن نحتفل معاً بإقامة إفخارستيا الربّ الواحدة، وتلك الرغبة أصبحت ابتهالاً مشتركاً وتوسّلاً واحداً. سويّةً نتوجّه إلى الآب، ونتوجّه إليه دائماً أكثر بقلب واحد."

ويتابع في البند ٤٦ فيقول:

"لا يستطيع مؤمن كاثوليكيٌّ أن يتناول القربان في جماعة لا تتمتّع بسرّ الكهنوت الشرعيّ الصحيح."

جدير بالذكر أن البابا يوحنا بولس الثاني أهدى البطريرك المسكوني ديمتريوس في العام ١٩٧٩، في عيد القديس أندراوس الرسول شفيع الكنيسة القسطنطينية، (٣٠ تشرين الثاني)، كأساً مذهبة نقش عليها باللاتينية: "نتطلع معا إلى اليوم الذي نتناول فيه سوياً من الكأس الواحدة."

أما البابا بندكتوس السادس عشر (٢٠٠٥- ٢٠١٣) فقد حافظ على نفس الخط العام الذي لسلفه، مع تشديد أكبر على العقيدة. ورأى أن المشاركة في الإفخارستيا يجب أن تكون نتيجة للوحدة، لا وسيلة لتحقيقها، ودعم الحوار المسكوني، لكنه رفض أي خطوات قد تُفهم على أنها تنازلات عقائدية.

بينما البابا فرنسيس (٢٠١٣–٢٠٢٤) الذي أظهر في الممارسة انفتاحاً رعوياً أكبر من سابقيه، خاصة في مواقف شخصية وغير رسمية، فلم يترجم انفتاحه هذا إلى تغيير رسمي في القانون الكنسي.، ولم يلغِ الشروط العقائدية للمناولة المشتركة.

أما توجيه الباباوات بخصوص حصول الكاثوليك على سر الإفخارستيا في الكنائس الشرقية غير الكاثوليكية فيسمح به للكاثوليك في ظروف استثنائية، وبالضبط "في قضايا محدّدة وفي ظروف خاصّة" كما جاء في البند ٤٦ من رسالة البابا يوحنا بولس الثاني "ليكونوا واحدا."

إننا إذ نكتفي في هذه العجالة بهذه النصوص، نأمل أن تساهم في توقف التجاوزات في الممارسة المنافية للتعليم الكنسي هنا وهناك، وتوجيه التهم غير اللائقة بحق الذين يحفظون الإيمان بكل جدية وأمانة.